

(رسالة التوحيد)

تأليف

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده المصرى
أحد أعضاء مجلس ادارة الازهر الشريف
والمستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

(وتطلب من عند السيد عمر الخشاب الكتبي بالسكة الجديدة والازهر)

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحميه
سنة ١٣١٥
هجريه
(بالقسم الادبي)

مقـــــدمات

التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفاته وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم وما يمتنع أن يلحق بهم

أصل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقة الاكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتى بيانه وقد يسمى علم الكلام إما لان أشهر مسئلة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الاولى هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم وإما لان مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه وقلما يرجع فيه الى النقل اللهم الا بعد تقرير الاصول الاولى ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها وان كان أصلا لما يأتى بعدها وإما لانه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما

هذا النوع من العلم علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوات كان معروفا عند الامم قبل الاسلام ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك لكنهم كانوا قلما يتحرون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على

ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته فكان جل ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير وادهاش بالمعجزات أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الامم قبل البعثة الاسلامية

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة [illegible] عليه فترك الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة وحصر الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه وتناول من مقام الالوهية ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطالب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض [illegible] الكون وما فيه من الاحكام والاتقان على أنظار العقول وطالبها بالامعان فيها لتصل [illegible] ما ادعاه ودعا اليه حتى إنه فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تتغير وقاعدة لا تتبدل فقال (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) واعتضد بالدليل حتى فى باب الادب فقال (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وتآخى العقل والدين لاول مرة فى كتاب

مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل وتقرر بين المسلمين كافة الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل وعلمه بما يوحي به اليهم وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الاجيال السابقة ففي صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر و[illegible] ووجد ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيآت ووكل الامر في الثواب والعقاب الى مشيئة الله وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه في هذه المقدمة فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فسح مجالا للناظرين خصوصا ودعوة الدين الى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط الا بعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات [illegible] وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الاعداء وجمع كلمة الاولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع

عقولهم

عقولهم ليتناولوها بالبحث في مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل
ردّ اليهما وقضى الامر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل
البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة وأغلب الخلاف كان في
فروع الاحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين يتفهمون
اشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوضون فيما يوهم
التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الامر على ذلك الى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى
الى قتله هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من اركان الخلافة واصطدم
الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التي استقاموا عليها وبقي
القرآن قائما على صراطه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وفتح
للناس باب لتعدّي الحدود التي حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم
شرعي وأشعر الامر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في
أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم وغلب الغضب على كثير من الغالين في
دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم فقضيت أمور على
غير ما يحبون .

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ يهودي أسلم وغلا في حب
علي كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو أنه الاحق
بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه الى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته
الى أن كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر بمذهبه في عهد علي فنفاه الى
المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الاحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا

وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الاحزاب فى تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين وغلا الخوارج فى عهد مروان الاول فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا الى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة وانتشرت فارتهم فى بلاد المغرب فأشعلوا نيران الفتن وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف أفريقيا وأمكنة من جزيرة العرب وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الالوهية أو ما يقرب منه وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد

غير أن شيأ من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ولم يحجب ضياء القرآن عن الاطراف المتنائية عن مثار النزاع وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم والمصريين والافريقيين ومن يليهم واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والاحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ووجد من أهل الاخلاص من انتدب نفسه لانذار الناس والتبشير بفريضة التعليم ومن أشهرهم الحسن البصرى فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل

صوب وتعمق فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه فثارت الشبهات بعد ما هبت على الناس أعاصير الفتن واعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء وبدت رؤس المشاقين تعاو بين المسلمين وكانت أول مسئلة ظهر الخلاف فيها مسئلة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ومسئلة من ارتكب الكبيرة ولم يتب اختلف فيهما [illegible] بن [illegible] استاذه الحسن البصرى واعتزاله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالامر ولا يعنون برد الناس الى أصل وجمعهم على [illegible] فذهب كل الى ما شاء ثم لم يقف الخلاف عند المسئلتين السابقتين بل [illegible] صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها عنها والى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالاصول الاولى على ما سبق بيانه ثم غالى آخرون وهم الآملون فمحوها بالمرة وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عنادا للاولين وكانت الاراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الاراء فى العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى

تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم
وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان
منه راجعا الى أوليات العقل وما كان سرابا فى نظر الوهم فخلطوا بمعارف
الدين مالا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ولجوا فى ذلك حتى صارت
شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة
فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بمذاهب
السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن لهم عضد من
الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة
الامويين واعتمدوا على طلب الانصار فيهم وا[illegible] درجات الرفعة
بين وزرائهم وحواشيهم فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شئ
وكان فيهم المانويه والزندية ومن لادين له وغير أولئك من الفرق الفارسية
فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بمحالهم وبعقائدهم الى من يرى
مثل آرائهم أن يقتدوا بهم فظهر الالحاد وتطلعت رؤس الزندقة حتى صدر
أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم بتمامه كما [illegible] بما علم
يتشامخ علوه وبدأ كما انتهى مشوبا [illegible] المنشرق الكائنات جريا على
ما [illegible]ه القرآن من ذلك وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته
وانتصر الاول جمع من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح
بالاولى [illegible] من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنه أو المتعففين عن
النطق [illegible] البدعة وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى

وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاسترسال بظاهر الشرع والكل على وفاق على أن الاحكام الدينية واجبة الاتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده وما هو من بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض عليه وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم بالاسلام وأفرطوا فى التأويل وحولوا كل عمل ظاهر الجسم [illegible] والكتاب [illegible] الخطاب [illegible] الخطا عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا وكانت الايام بينهم دولا ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى [illegible] القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم [illegible] العقائد على أصول النظر وارتاب فى أمره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كامام الحرمين والاسفرايني وأبى بكر الباقلانى وغيرهم وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة فانهزم من بين أيدى هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر

ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة في أطراف البلاد الاسلامية

غير أن الناصرين لمذهب الاشعري بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول ومضى الامر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالي والامام الرازى ومن أخذ مأخذهم فخالفوهم في ذلك وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر في الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من التفكر المحض ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم والوفاء بما يندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاؤا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به في تحصيل لذة عقولهم وافادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الاسرار المكنونة في ضمائر الكون مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأذن لنا . في قوله (خلق لكم ما في الارض جميعا) اذ لم يستثن من ذلك سرا ولا خفيا وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب في سبيلهم الى ما هدوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع وبعد ما صح من قوله عليه السلام أنتم أعلم بشؤون دنياكم وبعد

ما

ماسن لنا في غزوة بدر من سنة الاخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم الاول الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصا عن ارسطو وافلاطون ووجدان اللذة في تقليدهم ما البادئ الامر والثاني روح الوقت وهو أشأم الامرين زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم مع ما انبعث عنه من الكافة بنال حماة العقائد عليهم وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة أو أحكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم في المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيأ من مباني الدين واشتدوا في نقده وبالغ المتأخرون منهم في تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ماوراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم

هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة في كتب المتأخرين كما تراه في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ماهو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الاجيال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وفتكوا بما بقي من أثر العلم النظري النابع من عيون الدين الاسلامي فانحرفت الطريق بسالكيها ولم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا

تحاور في الالفاظ وتناظر في الاساليب على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا في أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبل باحتماله غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا في التضليل والتكفير وغلوا في ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم في دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام وهذا كفر وهذا اسلام والدين من وراء ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون ولكن ماذا أصاب العامة في عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط شر عظيم وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين وكيف عبثت به في نهاية أمره أيدي المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده

والذي علينا اعتقاده أن الدين الاسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه في صوابه وخطله

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذي تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا

مع التقليد حسبما أرشدنا اليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الامم فى الاخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملى وحق ما قال فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وإن فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى

عنها وهو يؤدّى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعا بل لا يمكن للعقل أن يتصوّر له ماهية كائنة كما أشرنا اليه فهو ليس بموجود حتى ولا فى الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب وذلك لانه لا واحد من الامرين له لذاته فنسبتهما الى ذاته على السواء فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والاول باطل وإلا لزم تقدّم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو ابطال لمعنى الحاجة وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدّى الى خلاف المفروض والثانى كذلك والا لزم تساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح وهو مما لا يسوّغه العقل على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم فى مرتبة وجود السبب فيكون حادثا اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث

الممكن لا يحتاج فى عدمه الى سبب وجودى لان العدم سلب والسلب لا يحتاج الى اعتباره بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم

ما كان سببا فى بقائه أما فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ضرورة لان العدم لا يكون مصدرا للوجود فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهى

كما يحتاج الممكن للسبب فى وجوده ابتداء يحتاج اليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا السبب الخارجى الوجودى فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هى فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته فيكون فى جميع أحواله محتاجا الى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجاد ومعطى الوجود وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيئ الممكن لقبول الايجاد من موجده وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء ويستغنى عنه فى البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود البناء فانه شرط فى وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شئ وبين استفادته الوجود من شئ فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد

الا اذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضي سبق مالك الوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة لا سبيل الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثانى لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجيء فى أحكام الواجب فهى ممكنة فالممكن موجود قطعا

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها فاما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت أن للممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شىء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفى التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديما أزليا لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثا والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبا واجبا وهو تناقض محال ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشىء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم

بوجود أجزائه وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته ولانه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية فلا يمكن العقل أن يحاكي ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لابد لها من منشا انتزاع في الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة في الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة في أحد الامتدادات الثلاث أي لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعادبها الى غير وجوده الاول وصار الى وجودات متعددة وهي وجودات الاجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة في المعنى السابق ذكره وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال في أي مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والسكون على وجه ليس فيه

خلل

خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وإن في النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال

فان تجلت النفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ماتصوره العقل كمالا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له وكونه مصدرا للنظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتا له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فما يجب أن يكون له صفة الحياة وهى صفة تستتبع العلم والارادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة فهى كمال وجودى ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حى وان باينت حياته حياة الممكنات فان ماهو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة ولو لم يثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ماهو أكمل منه وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقد الحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه وإلا تصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل وهو محال

ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شىء ما وراء ذاته فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام

والاتقان ووضع كل شئ في موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقائه وذلك ظاهر لجلي النظر بما يشاهد في الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قدر لها وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل في علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه في جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج اليه في تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك في مواضعه من أبدانها وايداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فترى بزرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ في أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاق وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواها الى ما قدرت له فهو الذي يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحي المستقل في عمله الى الايدي والارجل والاعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادي عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التي لا غنى عنها في النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص أو للنوع هو الذي يعلم حالة الجروة من الكلاب مثلا وأنها متى كبرت تلد أجراء

متعددة فيمنحها أطباء متكثرة وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنيع الذي انما تتفاضل العقول في فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شئ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام وواضعا لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الاكوان عظيمها وحقيرها كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم

الارادة

مما يجب لواجب الوجود الارادة وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما يوجد من الممكن لا بد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لانه انما يفعل على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده وأن

يرجع عنه فذلك محال في جانب الواجب فان هذا المعنى من الهموم الكونيه والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهي صفة بها الايجاد والاعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته فلا ريب يكون قادرا بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لا معنى له الا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه في خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فأتيه تنزها عن اللائمة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال في الكون انما هو تابع لكمال المكون وإتقانه ابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة فصدر ويصدر على

هذا النمط الرفيع (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون)
وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تتنزه عن العبث
ويستحيل أن تخلو من الحكم وان خفي شئ من حكمتها عن أنظارنا

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا   أما الوحدة الذاتية
فقد أثبتناها فيما تقدم بنفي التركيب في ذاته خارجا وعقلا   وأما الوحدة
في الصفة أي أنه لا يساويه في صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة
تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في
مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات   وأما الوحدة
في الوجود وفي الفعل ونعني بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد
الممكنات فهي ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين
تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والا لم يتحصل معنى التعدد وكلما
اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان
الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما تثبت له بالبداهة
فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها
علم وارادة يباينان علم الاخرى وارادتها ويكون لكل واحدة علم وارادة
يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها

هذا التخالف ذاتي لان علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لامر
خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق   وقد قدمنا أن فعل
الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته   فيكون فعل كل

صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وارادتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لان كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم أن يكون للشئ الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق

القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون
شأنا من شؤونه قديما بقدمه أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك
الوصف القديم فلا خلاف في حدوثه ولا في أنه خلق من خلقه وخصص
بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد إبلاغه لخلقه ولانه
صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه
من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف
ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه
فان الآيات التي يقرؤها القارئ تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت
والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء
القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها وليس في القول بأن الله
أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر في وجوده ما يمس شرف نسبته
بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبي
وأصحابه وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة
أما ما نقل الينا من ذلك الخلاف الذي فرق الامة وأحدث فيها الأحداث
خصوصا في أوائل القرن الثالث من الهجرة وإباء بعض الأئمة أن ينطق
بأن القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة في التأدب من
بعضهم والا فيجل مقام مثل الامام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن
المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته
ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهي ما به تنكشف المبصرات وصفة
السمع وهي ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا
أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة

كلام

كلام فى الصفات اجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا

اذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لانواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها أما الوصول الى كنه حقيقة ما فما لا تبلغه قوته لان اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه وذلك ينتهى الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره خذ أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شئ من الكائنات وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان كان سليما انما هى تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وادراك القواعد التى قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر هل هي قبل الجسم أو بعده هل هي فيه أو مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى ماذا يكون اندهاشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدي

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيويه ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام وتخالف الانظار في الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن ينتصر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القوة منها على الضعيف

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى فهو عبث ومهلكة عبث لانه سعي الى ما لا يدرك ومهلكة لانه يؤدي الى الخبط في الاعتقاد لانه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره

لاريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها أما ماوراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيه

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أزلى أبدى حى عالم مريد قادر منفرد فى وجوب وجوده وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤن التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شئ منه بالالفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع لان استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى وانما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عند ما تبلغه عقولنا وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره وكل ما صدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته بجميع صفات الافعال من خلق و رزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وارادة أن يتوهم أن شيأ من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلا فان ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد حتى اذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده وما تلا ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والاغراض فقد بالغ قوم في الايجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه أن يجهد القيام بما عليه من

الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علواً كبيراً وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للمعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلَّباً يبرم اليوم ما نقضه بالامس و يفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرّح الغلاة والمقصرون جميعاً بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والكذب فى أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالالفاظ و يتمارون فى الاوضاع ولا يدرى الى أىّ غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاماً أو يدفع فساداً خاصاً كان أو عاماً لو كشف للعقل من أىّ وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثاً ولعباً ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة و بداهة العقل لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان ما يتبع العمل مراد الفاعله بالفعل والا لعد النائم حكيماً فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقرباً كاد يلسع طفلا أو دفعت صبياً عن حفرة كاد يسقط فيها بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء «أن أفعال العاقل تصان عن العبث» ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته

ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها وإن كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد

صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والارض وما بينهما وحفظ به نظام الكون باسره وما صانه عن الفساد الذي يفضي به الى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود في معدته خصوصا ما هو من الموجودات الحسية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا لا يمكن القول بالثاني والا لكان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة ان لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا الا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة اذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب تحقق ما وعد

وأوعد به فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته والاصل الذي يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

وقوله لاتخذناه من لدنا أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص وهو محال وإن في قوله ان كنا فاعلين نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقي أن الناظرين في هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين فمنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمي المعاني بأسمائها ولا يبالي جوز الشرع اطلاقها في جانب الله أم لم يجوز فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشؤن لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا في جانبه فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردها ومركبها فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام وبعبارة أخرى

بوهم القهر والتأثر بالاغيار ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة
الفكر وهما من لوازم النقص فى العلم والغاية والعلة الغائية والغرض
توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته وفيها ما فى
سوابقها ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف
فى المقال سببا فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى
بهم التفرّق الى ما صاروا اليه من سوء الحال

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك الى
دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لاعماله الاختيارية
يزن نتائجها بعقله ويقدّرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعدّ انكار
شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل
كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى
سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد
يطلب كسب رزق فيفوته وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة فيعود
باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ويتخذ من خيبته
أوّل مرة مرشدا له فى الاخرى فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسائل
أحكم وينفذ غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى إن كان سبب
الاخفاق فى السعى منازعة منافس له فى مطلبه لوجدانه من نفسه أنه
الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك إن
لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله كأن هب ريح

فأغرق بضاعته أو نزل صاعق فأحرق ماشيته أو علق أمله بعين فمات أو بذى منصب فعزل يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن نحيط بها قدرته وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرّفه على مقتضى علمه وارادته خشع وخضع ورد الامر اليه فيما لقى ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكوّن الكائنات أسمى من قوى الممكنات يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لاجله وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لاجله

على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيأ منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه وهو عقله الذى شرّفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سرّ القدر الذى نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدؤا وغاية ما فعلوا أن فرّقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر

وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدى الى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الاسباب الظاهرة وأن لشيء من الاشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التى هدانا الله اليها والاستعانة على السعادة الاخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ورد الامر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية الاول أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته والثانى أن قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد فى تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لاحد أن يذهب الى غير ذلك وهذا الذى قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له

الامم وعوّل عليه من متأخرى أهل النظر امام الحرمين الجوينى رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف الا اعتقاد أن الله صرّفه فى قواه فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها وحدها السلطان الاعلى فى اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته

أما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما هو من شره العقول فى طلب رفع الاستار عن الاسرار ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ويخص به أهل الولاية والصفاء وكثر ما ضلّ قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الانواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلازمه خواصه وكذا الحال فى تميز الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها على ما هى عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ولو سلب شئ منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والفرض أنه الانسان فهبة الوجود له لا شئ فيها من القهر على العمل

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب وكون ما في العلم يقع لامحالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لامير باختياره يحل به عقوبته لامحالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزما ولا مانعا وانما يرتبك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يغنيني عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الامر في ذاته مهما بالغ المعبر في الايضاح عنه والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته فأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم ويل للخابط ذلك قلب لسنة الله في خلقه وتحريف لهديه في شرعه عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف وما أقنا الا على معروف ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

حسن

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لاتخرج عن أن تكون من الاكوان الواقعة تحت مداركنا وماتنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ماتنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا وذلك بديهى لايحتاج الى دليل

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها فان اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الازهار وتنضيد أوراق النباتات والاشجار خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض ولا فى قبح الصورة الممثل بها تهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ماهو الجمال وماهو القبح فى الاشياء ولكن لايخالفنا أحد فى أن من خواص الانسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران فى أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن وان اختلفت الاذواق ففى الاشياء جمال وقبح

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلمّ به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجمال فيها فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبهر له بصائر لاحظيه والنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل والسقوط فى الهمة وضعف العزيمة ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون باضدادها

وقد يحمل القبيح بجمال أثره ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به فالمرّ قبيح مستبشع والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر لكن أثر المر فى معالجة المرض وعدل الدميم فى رعيته أو إحسانه اليك فى خاصة نفسك يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الاثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو اذا أضرّ واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم وأصر

هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الافعال الاختيارية كما قال فى الموجودات الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها وتنفعل نفوسنا بما يلمّ بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة

فمن الافعال الاختيارية ماهو محبب فى نفسه تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم «بالجناستيك» وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ومنها ماهو قبيح فى نفسه يحس منه مايحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع وكولولة النائحات ونقع المذعورين

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الالم وماهو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الالم فالاول كالضرب والجرح وكل مايؤلم من أفعال الانسان والثانى كالاكل على جوع والشرب على عطش وكل مايحصل لذة أو يدفع ألما مما لايحصى عده وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى مايلذ والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود اللهم الا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية مايحسن باعتبار مايجلب من النفع ومايقبح بما يجر اليه من الضرر ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى اذا أخذ من أكمل وجهاته وقلما يشاركه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ مايقبح لشؤم عاقبته كالافراط فى تناول الطعام والشراب والانقطاع الى سماع الاغانى والجرى فى أعقاب الشهوات فان ذلك

مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وإنما قبح اللذيذ في هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التي قد لا تنتهي الا بالموت على أسوإ حالاته ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الالم ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسنا مقارعة الانسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه في الاحساس ومخاطرته حتى بحياته في سبيل ذلك كأنه يرى في بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله ومنه معاناة التعب في كشف ما عمي عن علمه من حقائق الكون كأنه لا يرى المشقة في ذلك شيأ بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ما له من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدي ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى الاول

فعل الشر والثانى عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التميز بين الفضيلة والرذيلة وقد حدّدهما النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمال والتفصيل لتفاوت فى درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الامم وذلتها وضعفها وقوّتها وان كان المحدّدون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الاوّليات العقلية لم يختلف فيه ملّى ولا فيلسوف فللاعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة والحس أو العقل قادر على تميز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه فى جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف على أرفع مما كان وذلك من أنقاض السقف القديم وهذا هو التميز بين الضار والنافع فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الاعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدّها أشد حمقا من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغه بذلك

وسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وانها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك أن من الاعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ماهو ضار لها بعده بإبقاءها فى الشقاء فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وان جميع الفضائل وما يتبعها من الاعمال مفروضة وان الرذائل وما يكون عنها محظورة وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد والى أن يأخذ من الاعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه

أما أن يكون ذلك حال العامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الاخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فمالا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضلل القائل به فى رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ولا تختص معيشته

يحوّمن الاجواء ولا بوضع من الاوضاع وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته فى أى إقليم وعلى أى حال وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة وعرض الاظفار

وهب الله الانسان أوساط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان الذاكرة والمخيلة والمفكرة فالمذكرة تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشباه أو الاضداد الحاضرة فقد يذكر الشئ بشبيهه وقد يذكر بضده كما هو بديهى والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر فى تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر ينظر مثلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ثم يتخيل المال ومنافعه وما تمتع به النفس من اللذة به سواء فى سد حاجاته أو فى دفع الالم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة

اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ماوهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالا مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالامن الذى أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما ينافى المثالين فلقوة الذاكرة وضعفها وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الاعمال وللامزجة والأجواء وما يختص بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر

فالناس متفقون على أن من الاعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال وأن القبيح ما جر الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وان عظمت لذته الحاضرة ولكنهم يختلفون فى النظر الى

كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه وكل يظن أنه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الاجيال وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسالك السعادة فليس فى سعة العقل الانسانى فى الافراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وان لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن يعرف الله به لو بالجلال الالهى

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل اليه وحده فهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما ومن الاعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه الا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات كما يرى فى أعداد الركعات وبعض الاعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية

وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادته

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا فى قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ماهو خير له فى الحياتين الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الاعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بنى جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازا على سائر الافراد بأمر فائق على ماعرف فى العادة وماعرف فى سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ماهى عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعدّ فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ماضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبىّ

النبوّة تحدّد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوّات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشئ مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل

عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقناع الذى هو عماد الطمأنينة فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التى نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وانما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار يشير بذلك اشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى أما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد للنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفى ذلك نظام أخوتهم وهى قاعدة سعادتهم وإليها آلهم فيما أعتقدوا وان طال الزمان فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا بالوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الاعمال التى تناط بها سعادة الانسان فى الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أونهى عنه فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أو أخروية

باعتبار أثره فى أحوال المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المال أو العرض أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل فى الاحكام الشرعية وقد يكون من الاعمال ما لا يمكن درك حسنه ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لا حسن له الا الامر ولا قبح الا النهى والله أعلم

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شىء من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود والكلام فى هذا البحث من وجهين الاول وهو أيسرهما على المتكلم وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفى مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول

ولا

ولا للاستطاعة البشرية وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه فمتى ادّعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضادّ شيأ من هذه الصفات المتقدمة وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعتري سائر أفراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون وتمتد اليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الاكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف فان قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعي قلنا إن واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الامر أننا لا نعرفها ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا

العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك

المعجزة لا بدّ أن تكون مقرونة بالتحدّى عند دعوى النبوّة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوّة من ظهرت على يده لان النبىّ يستند اليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعدّ تأييدا منه له فى تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوّة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شئ

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر أو مس عقولهم شئ من الضعف لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهى الذى يفوق كل اختصاص اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى انكار دعواهم ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثتهم والامر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل فى التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل ثم أباحه لظهور أثره فى الأثمار فإنما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ولا حظر عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية والفضائل محمية وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة عليه وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الارض ببنى آدم كأن النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل والكلام فى هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام ومزلة الاقدام ومزدحم الكثير من الافكار والاوهام ولسنا بصدد الاتيان بما قال الاولون ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد والذهاب اليه من أقرب الطرق من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق اللهم الا إشارة من طرف خفى أو إلماعا لا يستغنى عنه القول الجلى

والكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان ﴿ الاول ﴾ وقد سبق الاشارة اليه يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم * وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية سواء كانت تلك الاعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات *

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء وان اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ومنهم من قال انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الاجسام المرئية وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الانفس عالمها وجاهلها وحشيها ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزغة وهمية وانما هو الالهامات التي اختص

بها هذا النوع فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا وإن شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما أو الى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ولا للفكر أن يصل الى مجهول بل قالوا أن لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال وانهم شاكون حتى فى أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الأجل المحدود كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الاهواء ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد إلهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدى وما عسى أن تكون

عليه متى وصلت اليه وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الامد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الاقوم بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد وقضاء الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار وتعديل الافكار وإصلاح الوجدان وتثقيف الاذهان ولانزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لاندرى متى نخلص منه وفى شوق الى طمأنينة لانعلم متى ننتهى اليها

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ماقدر له فى حياة يشعر بها وبأن لامندوحة عن القدوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ماينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها والشؤن التى لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ماهو فيه أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤن هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقادات والاعمال وذلك الكون مجهول لديك وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم الذى خلق الانسان وعلمه البيان علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعد لها

بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته
يميزهم بالفطر السليمة و يبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه
للاستشراق بأنوار علمه والامانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم
انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون
على الغيب باذنه و يعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه و يكونون فى
مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين نهاية الشاهد و بداية الغائب
فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها وهم وفد الآخرة فى لباس من
ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على
العقول من شؤن حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر
أن يكون له مدخل فى سعادتهم الاخروية وأن يبينوا للناس من أحوال
الآخرة ما لابد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد
عن متناول أفهامهم وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم
فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الاعمال ما هو مناط سعادتهم
وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه
بأعماق ضمائرهم فى إجماله ويدخل فى ذلك جميع الاحكام المتعلقة
بكليات الاعمال ظاهرة و باطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من
الآيات حتى تقوم بهم الحجة و يتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك
رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذى أحسن كل شئ خلقه وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على
كل حى بما اليه حاجته ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه
يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم

مقام المواهب التي اختص بها غيره أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط في أهم حياته والضلال في أفضل حاليه

يقول قائل ولم لم يودع في الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية في الحياة الآخرة وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانساني ذلك النوع على ما به وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

﴿المسلك الثاني﴾ في بيان الحاجة الى الرسالة بأخذ من طبيعة الانسان نفسه أرتنا الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر وينقطع الى بعض الغابات أو الى رؤس الجبال ويستأنس الى الوحش ويعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور النبات ويأوى الى الكهوف والمغاور ويتقي بعض العوادي عليه بالصخور والاشجار ويكتفي من الثياب بما يخصفه من ورق الشجر أو جلود الهالك من حيوان البر ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها وانما الانسان نوع من تلك الانواع التي غرز في طبعها أن تعيش

مجتمعة وان تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة
عمل يعود على المجموع فى بقائه وللمجموع من العمل مالاغنى للواحد عنه
فى غنائه وبقائه وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعورا بحاجته الى
سائر أفراد الجماعة التى يشملها اسم واحد وتاريخ وجود الانسان شاهد
بذلك فلاحاجة الى الاطالة فى بيانه وكفاك من الدليل على أن الانسان
لا يعيش الا فى جملة ماوهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير
المعانى فى الالفاظ وتأليف العبارات الا لاستعدادا الحاجة به الى التفاهم
وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لاغنى
لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لايشتبه فيه وكلما كثرت مطالب
الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدى العاملة فتمتد الحاجة
وعلى اثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع بأسره
. وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لايخفى
. هذه الحاجة خصوصا فى الامة التى حققت عنوانها الصلات وعلائق
ميزتها عمن سواها حاجة فى البقاء حاجة فى التمتع بمزايا الحياة حاجة فى
جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على أساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من
أفضل عوامل المحبة بين أفراده عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط
ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها
والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب هى الدافع لكل من
المتحابين على العمل لمصلحة الآخر الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة

الخطر فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظ النظام الامم وروح البقائها وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه فاذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ فى العلاقة بينهما تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه فى سداد عوزه فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفله الله فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معترضا لخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا واندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب فحاجته فى

سد عوزه هي حاجته الى القائم بأمره فيحبه محبته لنفسه ولا يخش منها شوب التعاوض في الخدمة

أما الانسان وما أدراك ماهو فليس أمره على ذلك ليس ممن يلهم ولا يتعلم ولا ممن يشعر ولا يتفكر بل كان كماله النوعي في اطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات وتسليمه على صغره الى العالم الاكبر على جلالته وعظمه يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة وايداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ويتبع ذلك أن يكون له في كل كائن مما يصل اليه لذة ويجوار كل لذة ألم ومخافة فلا تنتهي رغائبه الى غاية ولا تقف مخاوفه عند نهاية (إن الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) تفاوتت أفراده في مواهب الفهم وفي قوى العمل وفي الهمة والعزم فنهم المقصر ضعفا أو كسلا المتطاول في الرغبة شهوة وطمعا يرى في أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤن وجوده لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة في الاستئثار بجميع ما في يده ولا يقنع بمعاوضته في ثمرة من ثمار عمله وقد يجد اللذة في أن يتمتع ولا يعمل ويرى الخير في أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر في استنباط ضروب الحيل ليتمتع وان لم ينفع ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ولا يبالي بارساله الى عالم العدم بعد سلبه فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب

وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة وإما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية كلا ولكن قدّر له أن تكون له لذائذ روحانية وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد اليه نظره وقد بلغت هذه الشهوة حدّا من الانفس كادت تتغلب على جميع الشهوات وأخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات وهى من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل وتمكين الصلات بين الافراد والامم لو صرفت فيما سيقت لاجله ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التى أشرنا اليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى إعلاء منزلته فى القلوب باخافة الامن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهملها الجريمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة فى نظامهم وعلى بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا فى الاعمال أو لا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا فى تفانيهم لا ريب أن البقاء على تلك الاحوال من ضروب المحال فلابد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة أن العدل نائب المحبة نعم لا انحاء القول

من حكمة ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها . قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم تذهب بكثير من الناس الى ماوراء حجب الشهوات وتعلو بهم فوق ماتخيله المخاوف فيعرفون لكل حق حرمته ويميزون بين لذة مايفنى ومنفعة مايبقى وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة وقسموا أعمال الانسان الى ماتحضر لذته وتسوء عاقبته وهو مايجب اجتنابه والى ماقد يشق احتماله ولكن تسر مغباته وهو مايجب الاخذ به ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى مايحفظ نظامهم فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لايجافى الحق ظاهره ولكن هل سمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب وهل كفى فى إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم إنهم مخطؤن وإن الصواب فيما يدعوهم اليه وان أقام على ذلك من الادلة ماهو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء كلا لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الاصول ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف

من أمر الجاهل ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ويفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزغات الاهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها كل انسان مهما علا فكره وقوى عقله أوضعفت نطنته وانحطت فطرته يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله وأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه قد لا تعرفها معرفة العارفين ولا تطرف اليها ارادة المختارين تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ولا سبيل لها الا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر فنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ومنهم من حجبته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ومنهم من تمددت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الانواع فجعل لكل نوع إلها ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الاذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود غير أن من أسرار الجبروت ما غمض

عليه

عليه فلم يسلم من الخبط فيه ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقى الخلاف دائما والرشد ضائعا اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان أشد أثرا فى التقاطع بينهم و إثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل و بعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما يلزم لذلك وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاهر تساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وانما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الافكار فى مجاريها وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى وفى كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده أفهل منى هذا النوع بالنقص و رزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الاعظم ثم يصغر و يتضاءل و ينحط الى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر تام لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ذلك لسر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين

من ذلك الضعف قيد الى هداه ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف

سعادته أكمل الواهب الجواد لجلته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه
بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفراده وكما جاد على كل شخص بالعقل
المصرّف للحواس لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحرّ والبرد
جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر فى الوقاية من غوائل
الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع من
عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت
منها لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير أنه
أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة
فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص فى
أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات
تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح
ويذل الجامح ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده وينبهر لها بصر
الجاهل فيرتد عن غيه يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون
المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له
ويستوى فى الركون لما يجيؤن به المالك والمملوك والسلطان
والصعلوك والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الاذعان لهم
أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به
معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شؤن ذاته وكمال صفاته وأولئك
هم الانبياء والمرسلون فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون
الانسان ومن أهمّ حاجاته فى بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من

الشخص

الشخص نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحى

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه لتصوير المعنى الذى يراد منه ولنعرّف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعنينا ما تثيره الالفاظ فى الاذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه . يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحى مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى الى الانبياء من قبل الله وقيل الوحى إعلام فى خفاء ويطلق ويراد به الموحى وقد عرّفوه شرعا أنه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه أما نحن فنعرّفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم نعم يوجد فى كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم الى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم

الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه فكأنهم بسقطتهم
هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسون
العقل وشؤنه وسره ومكنونه ويجدون فى ذلك لذة الاطلاق عن قيود
الاوامر والنواهى بل عن محابس الحشمة التى تضمهم الى التزام ما يليق
وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان فاذا
عرض عليهم شئ من الكلام فى النبوات والاديان وهم من أنفسهم هام
بالاصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر وانصرفوا عنه وجعلوا
أصابعهم فى آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة
وتتبعها الشريعة فيحرموا اللذة ما ذاقوا وما يحبون أن يتذوقوا وهو
مرض فى الانفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره
من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر
ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا وأن
الادنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الاجمال وأن ذلك
ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر
التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة فى أن من النظريات
عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب
ترتقى فى ذلك الى ما لا يحصره العدد وان من أرباب الهمم وكبار النفوس
ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون
بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى

لاينازع والظاهر الذى لايجاحد فاذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الامر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة الى اليوم

فاذا اسلم «ولا محيص عن التسليم» بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالافق الاعلى وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم وأن يكون ذلك سنة لله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده وتكون الأعلام التى نصبها الهداية الى سعادته كافية فى ارشاده فتختم الرسالة و يغلق باب النبوة كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالية وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وان غيب عنا فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا الشئ من العلم

الالهى وأن يكون لنفوس الانبياء إشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الارواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله انه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لان شأنهم فى الناس أيضا غير الشؤن المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ عقالهم ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى

شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الانس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيأ مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحة ما يحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم الى دعوة من يخف بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ومآل من غر روايه ولا يكون لهم إلا سوء الاثر فى تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم الا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار فلم يبق بين المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبؤا به بل وبوقوعه إلا استغراب من العادة وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان كما سلف فى الوجه الاول من الكلام على الرسالة أما الغائب عن

زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة أو بان للصين عاصمة تسمى بكين وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر

لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالمخبر به وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه وغاية الامر أنهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم النفوس وتنبو عنهم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما أراد شرعه للناس وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاؤا به حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الادلة عند التحدى لا يصح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ولا فى دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد ما يقول

لا يبقى لمقاله أثر فى العقول والباطل لا بقاء له الا فى الغفلة عنه كالنبات الخبيث فى الارض الطيبة ينبت باهمالها وينمو باغفالها فاذا الامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الانبياء قامت فى العالم الانسانى ماشاء الله مما قدر لها مقام سائرقوا مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبين فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته ان شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل أنهم من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة أو تقويم سلكاتها أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين أما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك

كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات اليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه أن لا ينال شئ من تلك الاعمال السابقة أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ما حدد فى شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوى ما ضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة يعودون بالناس الى الالفة ويكشفون لهم سر المحبة ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ويشعروها أفئدتهم يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه وأن لا يتجاوز فى الطلب حده وأن

يعين قويهم ضعيفهم ويمدّ غنيهم فقيرهم ويهدى راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم أن يردّوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له وحظر تناول شئ مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله واحترام الاعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الاقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرّضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبا الدار الآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محاظيره يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الاجر أو إرضاء لمن بيده الامر وبهذا ينحلّ أعظم مشكل فى الاجتماع الانسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرّسين ومعلمى الصناعات فليس

عما جاء الله تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان
ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ولا مقادير
الطول فيها والعرض ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ولا ما تفتقر
اليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها وغير ذلك مما وضعت له العلوم
وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم فان ذلك كله من وسائل
الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من
الادراك يزيد فى سعادة المحصلين ويقضى فيه بالنكد على المقصرين
ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال وقد
جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه
بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء
أما ما ورد فى كلام الانبياء من الاشارة الى شىء مما ذكرنا فى أحوال الافلاك
أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة
مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ولغتهم
عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون
والا ضاعت الحكمة فى ارسالهم ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة
بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه الى الخاصة
يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد
فى كلامهم
على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ما ميزها الله به
من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب
أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان

فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

اعتراض مشهور

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون يتناهبون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجيء النوبة حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عد أهل كل ذى دين دينهم جنة لمنازعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ويثور بينهم غبار الشر وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين فها هو الدين الذى تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا فى الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الاثر

نقول فى جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن

ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم وإلا فقل لنا أى نبي لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها فى أفرادها وجملتها أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الاعظم من الناس بل الكل الا قليلا لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق ارسطو بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها فأى الطرق أقرب اليك فى مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال فى رغائبها من البديهى أنك لا تجد الطريق الاقرب فى بيان مضار الاسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب وما يحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب الغالب عليه فى أدنى شؤنه اليه المحيط بما فى نفسه الآخذ بأزمة همه وتسوق اليه من الامثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة وتنعش روحه بذكر رضا الله اذا استقام وسخطه عليه اذا تقحم عند ذلك يخشع منه القلب وتدمع العين ويستخذى الغضب وتخمد الشهوة والسامع لم يفهم من ذلك كله الا أنه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ويسخطهم اذا عصى ذلك هو المشهود

من

من حال البشر غابرهم وحاضرهم ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم كم سمعنا أن عيونا بكت وزفرات صعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين . لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الادب وزعماء السياسة . متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ويتقى الشر منهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للامرين الا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شىء ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الامثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله . كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى

مهاوي الشقاء فالدين هادو النقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم في كماله واشتداد حاجتهم اليه «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين» ألا إن الدين مستقر السكينة وملجأ الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة في الكون وبه ينظر الانسان الى من فوقه في العلم والفضيلة والى من دونه في المال والجاه اتباعا لما وردت به الاوامر الالهية . الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعي الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذي نحن بصدده فتبعته في أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه وما عليهم في ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع اليه قوته وتظهر للاعمى حكمته

وربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأي القائلين باهمال العقل بالمرة في قضايا الدين وبان أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به وانما الذي سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد الهي كما لا يستقل الحيوان في درك جميع

المحسوسات

المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لابد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله والاذعان لما تكشفه له من معتقدات وحدود أعمال كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها الى معرفتها وانها آتية من قبل الله وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شئ من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه وفى التفويض الى الله فى علمه وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثانى

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من

رعاياهم الضعفاء والى نار تنقض من سماء الحق على أُدم الانفس البشرية لتأ كل ما اعشوشبت به من الاباطيل القاتلة للعقول وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة الغازين وبالجملة تؤوب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنها الله « انا هديناه السبيل » ليبلغ بسلوكها كماله و يصل على نهجها الى ما أعد فى الدارين له ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف كانت دولتا العالم دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الاحن حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد مالا يوصف فى قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة وكان شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الالباب ففقد بذلك

الاستقلال

الاستقلال الشخصي وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم كما هو الشأن في الجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات في عقائدها وأهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهي الذي يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التي أحاطت بالقلوب ويمزق الحجب التي أسدلت على العقول فتهتدي العامة الى السبيل ويثور الجم الغفير على العدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشؤا سحبا من الأوهام ويهيؤا كسفا من الاباطيل والخرافات ليقذفوا بها في عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل وعدو كل ما يثمره النظر الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد هذه حالة الاقوام كانت في معارفهم وذلك كان شأنهم في معايشهم عبيد أذلاء حيارى في جهالة عمياء اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الاذهان ومعها مقت الحاضر ونقص العلم بالغابر ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها عما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لاول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معا

وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة فى النزعات خاضعة للشهوات تخر كل قبيلة فى قتال أختها وسفك دماء أبطالها وسبى نسائها وسلب أموالها تسوقها المطامع الى المعامع ويزين لها السيآت فساد الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة فكانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة وانفصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى أظلت رؤس جميع الامم نعم كان ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد

فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول عام الفيل « ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام» ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم القرشى بمكة ولد يتيما توفى والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما

كريما

كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معاً وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الاوهام وأقرباء من حفدة الاصنام غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدناً وعقلاً وفضيلة وأدباً حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين أدب الهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصاً مع فقر القوام فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملاً والقوم ناقصون رفيعاً والناس منحطون موحداً وهم وثنيون سلماً وهم شاغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعاً على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا استاذ ينبهه ولا عضد اذا عزم يؤيده فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الامر لم يجر على سنته بل بغضت اليه الوثنية من مبدإ عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة وما جاء في الكتاب من قوله «ووجدك ضالاً فهدى» لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد

أوعلى غيرالسبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله إنّ ذلك لهو الافك المبين واغماهي الحيرة تلمّ بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ماهدوا اليه من انقاذ الهالكين وإرشاد الضالين وقدهدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيأ من المال يسد حاجته « وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ماترغبه الانفس من نعيمها بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذى تولاه الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهى وتجلى عليه النور القدسى وهبط عليه الوحى من المقام العلى فى تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم . جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام وبيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العلية من

آلهتهم

آلهتهم ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم وتقدم بعض
جنده فاستاق عددا من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج
عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال
هى أن تردالى مائتى بعير أصبتها لى فلامه الملك على المطلب الحقير وقت
الخطب الخطير فأجابه أنا رب الابل أما البيت فله رب يحميه هذا
غاية ما ينتهى اليه الاستسلام وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على
قريش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى حاله من الفقر
ومقامه فى الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا
لامال لاجاه لاجند لاأعوان لاسليقة فى الشعر لابراعة فى الكتاب
لاشهرة فى الخطاب لاشئ كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة
أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ماهذا الذى رفع نفسه فوق النفوس
ما الذى أعلى رأسه على الرؤس ما الذى سما بهمته على الهمم حتى
انتدب نفسه لارشاد الامم وكفالته لهم كشف الغمم بل وإحياء الرمم
ما كان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من
عقائدهم ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك الا وجد
انه ريح العناية الالهية ينصره فى عمله ويمده فى الانتهاء الى أمله قبل
بلوغ أجله ماهو إلا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه يضئ له السبيل
ويكفيه مؤنة الدليل ماهو إلا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد
والجندى أرأيت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى
التوحيد والاعتقاد بالعلى المجيد والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية
وزندقة نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم وفى المشبهين

المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم وفى الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف فى الاكوان ورد كل شئ فى الوجود اليه أهاب بالطبيعيين ليمدوا ابصارهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنور واسر الوجود الذى قامت به صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم . تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد و بين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه لا يتفاوتون الافيما افضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل وقطعتهم دون الامل مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لالفاظها الى غير ما قصد من وحيها اتباعا لشهواتهم ودعاهم الى فهمها والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم واستلفت كل إنسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس أجمعين ذكورا وإناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده

اليه

اليه عقله وفكره وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الاكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة وأقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع والحاجة الى أولئك المصطفين إنما هو فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه وليست فى الاعتقاد بوجوده وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة . دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك من عالمين متخالفين وان كانا ممتزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق . دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الاخرى وبين لهم أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة أعداء ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت أهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير

أمي منه لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة و يناضلهم بالدليل و يأخذهم بالنصيحة و يزجهم بالزجر و ينبههم للعبر و يحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه عادل فى أمره ونهيه أو أب حكيم فى تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤف بهم فى شدته رحيم فى سلطته . ما هذه القوة فى ذلك الضعف ما هذا السلطان فى مظنة العجز ماهذا العلم فى تلك الأمية ماهذا الرشاد فى غمرات الجاهلية . إن هو الا خطاب الجبروت الاعلى قارعة القدرة العظمى نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شئ الذى وسع كل شئ رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب و يمزق الغلف و ينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريأ من التهمة لاتيانه على غير المعتادين من خلقه . أي برهان على النبوة أعظم من هذا أمي قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرؤن بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليحصوا ما كانوا يعلمون . فى ناحية عن منابع العرفان جاء يرشد العرفاء ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة و يخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ماهذا الخطاب المفحم ماذلك الدليل الملجم . أأقول

ماهذا بشرا ان هذا إلا ملك كريم لا لا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صدق الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا وتواترت أخبار الامم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين الى اليوم . كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التي ألحقتها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالاتهم آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا في أحكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم . وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البعد

بها عن الروح الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الامم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم . نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول والسبق الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الاخبار عن الله واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته وانهالوا بقواهم عليه استكبارا عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم الى ما لم تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان فى استطاعتهم أن

يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاؤا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ولجاج القوم فى التعدّى أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه العلىّ على جميع الاحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمىّ أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهى والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى صلوات الله عليه

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدّقته حوادث الكون كالخبر فى قوله غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين وكالوعد الصريح فى قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدّى العرب به واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالامة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه وشرط

كالذى شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شئ من العقل أن الارض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول مااستنهضهم له وبلوغ ماحثهم عليه

يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فان العجز هى حجة الافحام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لايسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن و إفحام الدليل الا أنه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين و بعد مابين وجهتى الاستدلال فيهما فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية لأنه جاء بلسان عربى وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم فى العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشئ من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسيا أوهنديا أورومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ماورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما

أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التى لا يمكن معها العاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه والاخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامى وما دعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامى أو الاسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وإنى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سندى فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الادلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار

صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم وأنهم له واليه راجعون «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» وما ورد من ألفاظ الوجه واليد والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الاعمال على سنة له في ذلك سنها في علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون» والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه

لها

لها أو عليها وأما ما تحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك إنما يرد الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع الا له ولا أن تطمئن إلا إليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الاخرة لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ولا في غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين» وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من

الارادة الالهية أو أنها هى كارادة الرؤساء والمسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها واففكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين وأنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين صار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ماسواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا على فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره إلى غيره وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال

لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها الهمم إلا حقا محترما تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الامم صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق خاصت إليه هينمة من سدنتها كل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وإنما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح فى وصف أهل الحق بانهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا احسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا العقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة

سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم «قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شئ لن تضيق عن دائب عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم «بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا» «انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون» فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولاحد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك

الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤا قطعا من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمي اليه ثم غالوا في ذلك فحرموا انفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وإن هم إلا يظنون» «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين» أما الاماني فسرت بالقراآت والتلاوات أي لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا واذا عن لاحدهم أن يبين شيأ من أحكامه ومقاصده اشتهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف في التأويل وقال هذا من عند الله «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة

وهى بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الألفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها خفى عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بان دين الله فى جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد قال الله «ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم» «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»

المشركين» «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه» «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذى توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة فى مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته فى ابناء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير لامة

والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لايعلم شيأ الى راشد فى عقله كامل فى نشأته يخرق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته فى النمو قائما على ماقررته الفطرة الالهية فى شأن أفراده وهذا من البديهيات التى لايصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر فى بيان ماتفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة فى طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ماوقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه ولا ينفث فى روعه من الوجدان الباطن مايعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره اللهم الا يدا تصل الى فيه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان أو يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل مايحسه بسمعه أو بصره فأخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعه

وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعه كلفتهم بعقول المعنى جلى الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام آلاما وتقلبت في السعادة والشقاء أياما وأياما ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل في الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجي المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم الى الملكوت الاعلى ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب السماء في وجوه الاغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف وسن للناس سننا في عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ باقواله ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم في السجايا والاعمال

نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما في العقائد فتفرقوا شيعا وأحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الا كوان والحظر على الافكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لاوفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الاصل وتخرمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كان سن الاجتماع البشري قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس في ارشاد الانسان إلى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله في جميع الاجيال واحد ومشيئته في إصلاح شؤنهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى في الارواح وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما

أوجب من التطبع بصالح الملكات « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين» ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام

فان نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية في الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير «على كل واحد منكم نفسه» لا «عليكم أنفسكم» كما هو ظاهر لكل عربي كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير في جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله في الخلقة وشرف اندراجها في النوع الانساني بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذي أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الارواح في معظم الامم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الاسلام على ما في الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهي الذي يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذي له النفوس وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمي الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التي وضعها الله للعقل في الفهم والتفكير أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله في النفس وتعرف

به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها

« كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل و يتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها الله فى علمه الازلى لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التى يرزؤن بها ففصل بين

الامرين فصلا لامجال معه للخلط بينهما فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم «إنا لله وإنا اليه راجعون» فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابه وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «من يرد ثواب الدنيا نؤته

منها» ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه «اللهم إنه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة» على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن أنه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع باهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيأ

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون» ثم فرض ذلك فى قوله «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا

من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما فى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور» ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ويحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين أبرز حال الآمرين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجلّ مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع أن الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيها على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ثم شدد بالانكار على قوم أغفلوها وأهل دين أهملوها فقال «لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما يعنون الله به على مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الاولين سدا لحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريرا لرقاب المستعبدين وتيسيرا لابناء السبيل ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الاموال فى سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل

الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة وشص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين وأى دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»

أغلق الاسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لاهوادة فيه

لم يدع الاسلام بعدما قررنا أصلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أما من أمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبل السعى ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغى ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لاسبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن

وحيه بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما»

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر يثبت الله بشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين «ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون» تألبت الملل المختلفة ممن

كان

كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا انبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الائمة من صحابته طلبا للامن وابلاغا للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرها امنين مطمئنين ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزأ قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم

الغلبة وبحبتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الاروبيون ضعة وضعفا رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا وصل الامر فى عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيأ سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا الاكراههم عليه شيأ من القوة وما كان من الجزية

لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذى أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسمعيل وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه فوجدوا لطفا ورحمة وخيرا ونعمة لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الاوبة تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرؤا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه وما

تكنفى حوله تطرفى الوصول الى عمله فترامو اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه كانت الامم تطلب عقلا فى دين فوافاها وتتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغيبتها كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤن الادنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضى الى أن قضى الحق بينهما هذا وماسبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم و بغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند

حد خصوصا في الصين وفي أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف وراءها ولا داعي أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر في العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامي واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمأنينة في الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا والى العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه هذا كان حال الاسلام في سذاجته الاولى وطهارته التي أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها في بعض أطراف الارض الى اليوم

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته سبحانك هذا بهتان عظيم ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار تواترا صحيحا لا يقبل الريبة في جملته وان وقع اختلاف في تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا

أتم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجىء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين ان فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الارض بمدنيتها زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغى قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحيى ميتها

ويتقع غلتها ويني الخصب فيها أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ماوراء لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم جاؤا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها لم جاؤا وعماذا رجعوا ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدر وبالملايين استقر المقام بكثير من

هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلما وشرعا وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا بها الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما هم عليه انما هو دين يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها وتصلح من شؤنها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الاجيال

المتأخرة

المتأخرة ما سبقها من أهل الازمان الغابرة هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شلنهم وضعضعة سلطانهم وما يبداه فى شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ» فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا اذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر فى الاكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ما بالهم

بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ما
هـذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين
ما يتدعوه وبين ما دعاهـم اليه فتركوه اذا كان الاسلام فى قربه من
العـقول والقـلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون
الوصول اليـه يد المتناول اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال
قراء القرآن لا يقرؤنه الا تغنيا ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا
* اذا كان الاسـلام منح العـقل والارادة شرف الاستقلال فما بالهم
شدوهما الى أغلال أى أغـلال اذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال
أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم اذا كان الدين فى تشوق الى
حرية الارقاء فما بالهـم قضوا قرونا فى استعباد الاحرار اذا كان الاسلام
يعـد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء فما بالهم قد فاض بينهـم
الغـدر والكذب والزور والافـتراء اذا كان الاسلام يحظر الغيـلة
ويحرم الخديعة ويوعـد على الغش بان الغاش ليس من أهله فما بالهم
يحتالون حتى على الله وشرعـه وأوليـائه اذا كان قد حرم الفواحش
ما ظهر منها وما بطن فما هـذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس
والبـدن اذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنـين
خاصتهم وعامتهم وان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعمـلوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصـبر وأنهـم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا
عن المنكر سلط عليهـم شرارهـم فيـدعو خيارهم فـلا يستجاب لهـم
وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق
ولا يعتصمون بصـبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر بل ترك كل صاحبـه

وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذا وصاروا فى أعمالهم أفرادا لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه وشيجة ما بال الابناء يقتلون الآباء وما بال البنات يعققن الامهات أين وشائج الرحمة أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذى فرض فى أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله فى ظلمات لا يبصرون أصح هذا فى عقل أو عهد فى نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيأ وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه وسموا أنفسهم أنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزؤن بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس ومن غرته نفسه بأنه على شئ من الدين وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجواب

ربما بالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما

كان ماجاء فى الايراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق فى فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن فى استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ماوعد الله على اتباعه وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ولا الاصم إعراضا وغاية ماقيل فى الايراد ان أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدّل سنة الله فى شفاء أمثاله كلامنا اليوم فى الدين الاسلامى وحاله على ما بينا أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام انا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر ان شاء الله

التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وأنه انما يخبر

عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والايمان بما جاء به ونعني بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة وعذاب فى نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الالهى عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة

أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به والاصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيأ وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيأ من قيمة الوعد

والوعيد ولا ينقض شيأ من بناء الشريعة فى التكليف كان مؤمنا حقا وان كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة والاصل فى ذلك أن الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل

بقيت علينا مسئلتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجلنا القول فيه الاولى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة والاخرى جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الانبياء من الاولياء والصديقين

أما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو بتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا وهو ما لا يمكننا معرفته وان كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

أما الثانية فانكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحق الاسفراينى من أكابر أصحاب أبى الحسن الاشعرى وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصرى فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الاشاعرة واستدل الذاهبون الى

الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى
خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها
السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون
بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات وأوّلوا ما جاء فى الآيات أما أن ذلك يوقع
الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى
الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما
سواها واما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لان ما فى قصة
مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الانبياء
عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤن الله
فى أنبياء ذلك العهد الا قليلا وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله
من آياته فى خلقه وذكرنا بها النعتبر بمظاهر قدرته فليست من قبيل
ما الكلام فيه من عموم الجواز فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات
نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير
وفى مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية
الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر أما مجرد الجواز العقلى وان
صدور خارق العادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه
موضع نزاع يختلف عليه العقلاء وانما الذى يجب الالتفات اليه هو
أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة
معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع
الامة أن ينكر صدور أىّ كرامة كانت من أىّ ولى كان ولا يكون
بانكاره هذا مخالفا لشئ من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة

ولامنحرفا عن الصراط المستقيم أين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الايام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الاولياء وتتفاخر فيها همم الاصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون

خاتمة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيأ ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا الا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى اذا رأوا ما يوعدون

فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا ٭

صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم وخسئ الشيطان الرجيم وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم

﴿ تمت الرسالة ﴾

(يقول المتوسل بجاه المصطفى خادم التصحيح بدار الطباعة محمود مصطفى)

الحمد لله المنفرد بالايجاد الحكيم الذى أبدع ما خلقه وأجاد الموصوف سبحانه بصفات التأثير ولا معقب له المنزه جل جلاله عن المماثلة والمشاكله والصلاة والسلام على سيدنا محمد المفحم بمحاسن حججه المكابرين وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بنصرة الدين (أما بعد) فقد وفق الله حضرة العالم العلامه الحبر البحر الفهامه محرر مباحث العلوم بجليل تحقيقاته ومنور حوالك المشكلات بجميل تدقيقاته ذى القدر الخطير الاستاذ الكبير الشيخ محمد عبده حفظه الله ورفع فى الخافقين ذكره وعلاه الى تأليف كتاب فى فن التوحيد هو فى بابه ولا غرو فريد ألطف من النسيم وأعذب من التسنيم ترى أرج التحقيق منه عابقا وبدر التنميق فى منازله شارقا جمع فيه من نفائس قواعد هذا الفن ومحكم مباحثه الغريبه على وجه حسن ما يبلغ به طالبه

غاية مطلوبه ويصل به راغبه الى منتهى مرغوبه ولما بدا هذا الكتاب للعيان وكان بحسن بيانه رفيع الشان بادر الى طبعه لعموم نفعه الهمام الامجد ذى الخلق المستطاب حضرة السيد عمر الخشاب فى المطبعة الزاهرة ببولاق مصر القاهره ۞ فى ظل الحضرة الفخيمة الخديوية وعهد الطلعة الميمونة الداورية من بلغت به رعيته غاية الأمانى أفندينا المعظم ((عباس باشا حلمى الثانى)) أدام الله أيامه ووالى على رعيته إنعامه ملحوظا هذا الطبع الجميل على هذا الشكل الجليل بنظر من عليه أخلاقه تثنى حضرة وكيل المطبعة الاميرية محمد بك حسنى فى أوائل شهر محرم الحرام سنة ست عشرة بعد ثلثمائة وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وشرف